المكتبة العامة لمكتبة الاسكندرية
رقم التصنيف : 297.
رقم التسجيل : 9959/5

التقريب والتهذيب
لعلوم شيخ الإسلام

القسم الأول
الفتح المبين من قواعد
الملة ومقاصد الدين

MFN 9301

④

الوسطية

لشيخ الإسلام ابن تيمية

الجمع والترتيب والعناية
لأبي الفضل
عبد السلام بن محمد بن عبد الكريم

الطبعة الأولى
دار الفتوح الإسلامية

الطبعة الأولى
١٤١٦ هـ - ١٩٩٥ م
حقوق الطبع محفوظة للمؤلف

Library (GOAL)

الترقيم الدولى I.S.B.N.
977 . 5708 - 01 - x
رقم الإيداع ٣١٣٥ / ٩٦

اهداءات ١٩٩٨

مؤسسة الاهرام للنشر والتوزيع
القاهرة

الناشر

دار الفتوح الإسلامية للطباعة

مطبوعات
دار الفتوح دعاية
نشر

القاهرة : ٥ ش رشدى - ش السلام - الكيت كات ت : ٣١٤٨١٨٩

بسم الله الرحمن الرحيم

مُقدِّمة

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادى له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله. . .

. . أما بعد :

فهاك قاعدةَ «الوسطية» رابعة قواعد القسم الأول من هذا المشروع الكبير: «التقريب والتهذيب لعلوم شيخ الإسلام»، حامدًا الله عز وجل على توفيقه وتيسيره حتى منّ بإخراجها، سائله سبحانه أن يكتب لها القبول والنفع، وأن يُديم علينا نعمة التيسير والعون إنه هو الجواد الكريم، وأن يفتح بها علينا وعلى المسلمين من فضله العظيم إنه هو الفتاح العليم.

وقد ذكرت فى أكثر من مناسبة أن مادة المشروع قد فرغ من جمعها كلها قبل الشروع فى إخراجها مسلسلة، وبقى أن أهذب كل جزء يصدر على حدة وأعالجه معالجة مستقلة، ولا شك أن كون المادة مُعَدَّة من قبل يوفر كثيرًا من الوقت، وهذا هو السبب فى تقارب حلقات هذا العمل بعد تيسير المولى عز وجل وإعانته.

وكل ما يُحتاج إليه من مقدمات قد سبق بيانه فى مقدمة القاعدة ٱولى: «الاعتصام بالكتاب والسنة»، على أن الكلام عن منهج العمل ، هذا المشروع يتكرر فى كل قاعده لأهميته، بالإضافة إلى ما يرد فى هر الغلاف الأخير لكل قاعدة من بيان موجز لهذا المشروع. وإن كنت ، مقدمة القاعدة السابقة قد ذكَّرت بأهم بنود هذا المشروع بصورة جملة، وبالله التوفيق.

وصلى الله على محمد وآله وصحبه.

أبو الفضل

عبد السلام بن محمد بن عبد الكريم

القاهرة: ليلة الأحد / غرة رمضان لسنة ١٤١٦ هـ

الموافق ٢١ من يناير لسنة ١٩٩٦ م

منهج العمل
فى هذا المشروع
(منهج جديد)

وهنا أُورد أهم الشروط المنهجية التى التزمتها فى جمع المادة وترتيبها وتهذيبها بصفة عامة، وإن كنت سأدع بعضها لظهوره وعدم الحاجة إلى النص عليه.

وهاك أهم هذه الشروط :

١- التأليف بين كلام شيخ الإسلام المفرق فى كتبه مما ينتمى إلى باب واحد أو قاعدة واحدة، ثم ترتيبه وتهذيبه وعنونته بالتفصيل الموضح هنا بحيث يخرج كله جسماً واحداً كأنما أخرجه الإمام نفسه على صورته هذه.

٢- الأصل الذى قام عليه العمل هو الحفاظ على عبارة الإمام كما هى، لا أخرج عن ذلك إلا فى حالات نادرة تقتضيها ضرورة الاختصار أو يستلزمها اقتطاع الكلام من سياقه الأصلى، بحيث يحتاج إلى تعديل طفيف فى أول العبارة أو فى آخرها لينضبط فى سياقه الجديد، وفى هذه الحالة أميز موضع التعديل بأن أضع أسفله خطاً، والغالب أن يكون ذلك كلمة واحدة أو حرفاً.

٣- لم أتعرض للتعليق على كلامه رحمه الله إلا فى مواضع نادرة

أجد التعليق فيها ضرورياً لحل مستغلق، أو تدارك سقط، أو تحريف من النسخ أو الطباعة، وذلك لأن الغرض الأصلى هو تقديم مادة شيخ الإسلام رحمه الله خالصة جهد الطاقة، كما أن كثرة التعليقات قد يكون فيها نوع من التحكم فى تفسير كلامه، وسد لباب البحث والنظر فيما يدل عليه.

٤- تخريج الأحاديث. وإن كنت أنبه على ملحوظة مهمة هنا، وهى أن أكثر ما أبقيت عليه من الأحاديث هو فى الصحيحين أو أحدهما، وهذا عموماً هو أكثر ما حوته كتب شيخ الإسلام من مادة حديثية فيما أعلم.

٥- ضبط الألفاظ التى قد تُشكل على القارىء.

٦- إعادة النظر فى علامات الترقيم وتنسيق الفقرات. وهذا عمل فى غاية الأهمية لفهم النصوص، حيث لاحظت فى كثير من المصادر المطبوعة أن علامات الترقيم لا تدل على ما يراد منها، مع أن وظيفة علامات الترقيم هى الإبانة والإيضاح، وكذلك فإن الفقرات فى بعض الأحيان لم تقم بوظيفتها هى الأخرى فى تنسيق المعانى بفصل ما يُفصل منها ووصل ما يوصل، فأحياناً تجمع فقرة واحدة ما ينبغى أن يفصل فى فقرتين أو أكثر، وأحياناً تفصل بين ما ينبغى أن يوصل[1].

٧- ما جرى من كلامه مجرى القاعدة أو الضابط الكلى أو الفائدة

(١) وقد عُنِيت هنا بهذين الأمرين بالإضافة إلى العنوانات الأصلية والجانبية والهامشية، والتشكيل، وطباعة المواضع الأكثر أهمية بخط غليظ ـ كل ذلك من أجل تيسير الفهم والاستيعاب لكلام شيخ الإسلام رحمه الله، والله المستعان.

الجليلة طبع بخط غليظ إشارة إلى أهميته.

٨- معالجة كل مادة وكل موضوع معالجة خاصة من حيث الترتيب، وتقسيم الفصول والمباحث والمسائل بما يناسب طبيعة الموضوع المعين، لاختلاف الموضوعات، حيث لا يمكن لمنهج واحد من المعالجة والتناول أن يناسب جميع المواد التى احتوى عليها هذا المجموع، لاختلافها كمّاً وكيفاً، واحتياج كل منها إلى نهج يلائمه.

٩- إسقاط ما تكرر من كلامه ـ وما أكثر ما يقع ذلك ـ والإبقاء على أفضل الصيغ وأجمعها ما أمكن، وقد أُضْطَرّ أحياناً لتكرار فقرة أو أكثر لمصلحة راجحة، ولكن ما يقع من ذلك لا يشكل نسبة بجنب التكرار الذى فى مصادر المادة.

١٠- وضع عنوانات أصلية وجانبية وهامشية بغرض البيان والإيضاح، ولم أضع لها رمزاً يميزها من كلام الإمام لأنه من المعروف أنه لم يكن يضع عنوانات فى كتبه، فاللبس غير وارد.

١١- إذا أسقطت استطراداً أو عبارة زائدة أو كلمة أو حرفاً بغرض التهذيب والاختصار أو غير ذلك فإننى أضع مكانه مربعاً صغيراً هكذا: □.

١٢- فى توثيق المادة: جعلت لكل مصدر رمزاً بغرض الاختصاز والتيسير، حيث يتكرر ذكر المصادر كثيراً، وفى آخر الكتاب ثَبَتٌ يبين المصادر ورموزها وطبعاتها.

١٣- إذا وضعت رَقْماً فى الأصل مريداً به العزو فمعناه أن كل ما سبق من كلام حتى آخر رقم قبله هو من الموضع المشار إليه أخيراً.

١٤- قد يُحس القارىء أن القاعدة مبتورة فى موضع ما أو أن بعض

أجزائها لم يُوَفَّ حقه من حيث الكم والكيف أو أحدهما، فهذا مع قلة وروده إنما يقع لكون المادة التى وجدتها فى تراث الإمام لم تفِ بذلك، ولابد هنا أن يكون فى الحسبان أننى لا أختصر كتاباً قائماً، وإنما أجمع كلاماً مفرقاً ومتناثراً ومتفاوتاً، ثم أرتبه وأهذبه وأعيد بناءه كما لو كان صاحبه أخرجه كذلك، وفى هذا من جهد التحرى ومشقة الاختيار ومعاناة الترتيب والتنسيق ما لا يخفى على اللبيب، فضلاً عما يقتضيه ذلك من تفاوت فى الأبواب كمًّا وكيفًا كما ذكرت.

*****

التعريف بقاعدة
«الوسطية»
مفتاح الصراط المستقيم

● قلت فى مقدمة «الصرط المستقيم»:

«قاعدة الوسطية» هى مفتاح «الصراط المستقيم»، لأن الصراط المستقيم كما جاء هنا هو سبيلٌ وسطٌ بين سبيلين منحرفين، فكان مفتاح الاستقامة معرفة حقيقة الوسطية التى يسلم العبد بمعرفتها من الانحراف عن الصراط السَّوِىّ ويدخل إذا تحقق بها فى صراط الأمة الوسط والفرقة الوسط[1]. وفى كلامه عن الوسطية أسرار وحقائق عظيمة هى من كنوز العلم وذخائر الهدى».

فكان معرفة الوسطية هى معرفة الصراط المستقيم الذى أمر العبد أن يسأل الله إياه كل يوم بضع عشرة مرة فى ركعات الفريضة، وهو أوجب دعاء وأنفع دعاء وأعظم دعاء دعا به العبد ربه.. وكل ما سبق أن قيل فى بيان فضيلة الصراط المستقيم وضرورة الدعاء به يصدق على الوسطية[2] باعتبارها مفتاحًا لمعرفة هذا الصراط بل هى صفة من أعظم

---

(١) « الأمة الوسط» هم المسلمون و«الفرقة الوسط» هم أهل السنة والجماعة، وقد فصلت القول فيهما فى الفصلين الثانى والثالث من هذه القاعدة.

(٢) ويصدق أيضًا على قاعدة «العلم والعمل» التى سبق أن بينا أنها جماع الصراط المستقيم، وسنزيد ذلك إيضاحًا فى مقدمة تلك القاعدة إن شاء الله.

صفاته، لأن الصراط المستقيم وسطٌ كما بينا، فكان معرفة قواعد وسطيته من أوجب الأمور وأعظمها خطرًا.

● والوسطية من أهم قواعد الدين، ولذا عُنى بها شيخ الإسلام عناية خاصة، وأكثرَ من التنبيه عليها فى كل مناسبة، وساق لها أمثلة كثيرة مما بَيَّن فيه السبيل الوسط والسبل المنحرفة عن يمينه وشماله، وربطها بقاعدة الصراط المستقيم على النحو الذى بينته هنا، وشأنه هنا كشأنه فى قاعدة الصراط المستقيم، فقد تفرد فيها رحمه الله بما لم يُسبق إليه، حيث لا يُعهد أن أحدًا جاء فى هذا الباب بمثل ما جاء به رحمه الله لا كمًّا ولا كيفًا، والله تعالى أعلم. وقد بلغ كلامه فى الوسطية موقعًا عظيمًا فى نفسى حتى هممت أن أجمعها من كتبه قبل إخراج هذا المشروع بمدة.

● والمراد بالمفتاح فى قولنا: «الوسطية مفتاح الصراط المستقيم»: الميزان، فالذى يفهم هذه القاعدة ويعى مقاصدها لا يكون قد حَصَّل مضمونها فحسب وإنما يكون قد حَصل على مفتاح الفرقان بين سبيل الهدى والسبل المنحرفة عنه، وميزان النظر فيما اختلف فيه الخلق من الحق، لأنه قد عرف حقيقة الصراط المستقيم الذى هو الحق المختلف فيه، وعلامة الأمة المصطفاة التى أنعم الله عليها، وذلك ما جاء فى قوله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا﴾، وقوله عز وجل: ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ * صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلا الضَّالِّينَ﴾.

● ومن هنا يتبين أن «الوسطية» من أعظم خصائص المنهج السلفى

الذى يتمسك بأصول السلف وفهمهم للكتاب والسنة[1]، فلا يقف عند الدعوة إلى الكتاب والسنة هكذا بإطلاق، وإنما يخصهما بفهم السلف وهم الصحابة رضوان الله عليهم وأئمة السنة من التابعين وتابعيهم، وذلك أن جُلّ أهل البدع أو كلهم يعلنون التمسك بالكتاب والسنة ثم يسلطون عليهما سيوف التأويل والتحريف والجهل والهوى حتى يحمِّلوا النصوص ضِدَّ معانيها، فإذا أُلْزِموا بفهم السلف الذين رضى الله عنهم وعمن تبعهم بإحسان حيث قال تعالى: ﴿وَالسَّابِقُونَ الأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالأَنْصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَانٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ..﴾ الآية [التوبة: ١٠٠] - أقول: إذا أُلزِم أهل البدع بفهم السلف لسقطوا من حالق وافتُضحوا لأنهم يصرِّحون بمخالفة السلف[2].

ووجه كون «الوسطية» من خصائص المنهج السلفى أن أمة الإسلام هى الأمة الوسط كما صرح الكتاب، والسلف هم خير هذه الأمة باتفاق، فكانوا أحق الناس بهذا الوصف، وكل من كان أشبه بالسلف وأكثر اتباعًا لهم امتثالاً لقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَانٍ..﴾ فهؤلاء هم أحق الناس بأن يكونوا هم الطائفة الوسط.

وهذا ليس وقفًا على طائفة بعينها بالاسم، وإنما كل من كان على

---

(١) ولله در العلامة الألبانى حفظه الله وهو من أئمة أهل السنة فى هذا الزمان حيث كان وما يزال من أعظم الناس تأكيدًا على هذا المعنى، فقد بين أن الأصول ثلاثة: الكتاب والسنة وفهم السلف. وهذا كثير فى كتبه ومحاضراته.

(٢) وانظر كتابى: «منهاج الدعوة السلفية وبيان الموقف السلفى من الأحزاب والجماعات الإسلامية المعاصرة». وراجع فى بيان تصريح أهل البدع بمخالفة السلف ما سبق فى قاعدة الاعتصام ص (١١٦) فقرة رقم (١٧).

هذا الوصف فهو من الفرقة الوسط، وكل من كان أبعد عنه فهو أبعد عن السبيل الوسط الذى هو سبيل النجاة، ويختلف حظ الناس من الوسطية والاعتدال فمن مقلٍّ ومكثر بحسب قربهم وبعدهم عن سبيل النبى ﷺ وأصحابه، بل قد يتفاوت حظ الرجل الواحد من ذلك باختلاف أحواله، فقد يكون فى بعض الأمور معتدلاً وسطًا، وقد يكون فى أخرى حائدًا عن الوسط جانحًا إلى هذا الطرف أو ذاك.

● ويجب أن يُعلم أن «الوسطية» المقصودة لا يراد بها مجرد الوسط «الهندسى»، وهو الذى يطلق الوسط فيه على النقطة التى فى المنتصف تمامًا بحيث يكون المسافة بينها وبين كل من الطرفين عن يمينها وشمالها مستوية تمامًا، وإنما المراد بالوسط هنا هو الوسط الذى يحدده الشرع، لأن العقل والحس لا يكفيان وحدهما لتعيين الوسط، ثم إن الوسط هو الخيار وهو العدل كما جاء فى تفسير الآية، فالأمة الوسط هى العدل الخيار، والعدل يختلف من باب إلى آخر، فكل باب يكون اعتداله بمقادير مخصوصة تناسبه وقد لا تناسب غيره، فقد يحتاج الأمر المعين أحيانًا أن يتجه إلى اليمين قليلاً أو إلى اليسار قليلاً، بل قد يلزم فى بعض الأمور الانحياز التام إلى إحدى الجهتين[1]، ولكن باعتبار الغالب وباعتبار مجموع أبواب الخير يكون المرء فى الوسط، كما أن هناك اعتبارًا آخر يقوِّى هذا المعنى وهو أن أهل الصراط المستقيم لابد أن يكون على جانبهم يمينًا وشمالاً طوائف مائلة ومنحرفة عن الصراط فيكونون

(١) وفى القاعدة السادسة من الفصل الأول هنا ما يوضح ذلك حيث بين رحمه الله أن هناك أمورًا يُطلب فيها التوسط وأمورًا يطب فيها الكمال فراجعها إن شئت ص (٦٣)، وهذا كله بحسب ما يقدره الشرع لا الهوى ولا الرأى الفاسد.

هم بالنسبة إليهم متوسطين. هذا بحسب فهمى للوسطية عند شيخ الإسلام رحمه الله، والله تعالى أعلم.

● ولابد أن يكون بعيدًا عن ذهن القارئ الكريم أن يكون مرادنا بالوسطية هو مايقرره العلمانيون المتعالمون المتطفلون على موائد العلوم الشرعية، الذين يظهرون الولاء للإسلام ويبطنون له العداء التام، ويتسمى كثير منهم بـ «المفكر الإسلامى» وما أشبه ذلك من الأسماء والنعوت.

وذلك أن كثيرًا من هؤلاء حين رأى عودة كثير من الناس إلى الدين وإقبالهم على العلوم الشرعية راح يبحث عن سبيل إلى إنقاذ العلمانية المتداعية، ففكر وقدَّر وعبس وبسر ثم ابتدع لنا بدعة «التدين المستنير» و«الفكر الدينى المعتدل» و«الوسطية».. وما أشبه ذلك مما يعلم أهل التدين الخالص والعلم الشرعى الصحيح أنها من حيث هى أسماء قد يكون فيها ما هو حق، ولكنه حق أريد به باطل، وليس لهم منه إلا الأسماء، وشأنها شأن المسجد الضرار الذى سماه المنافقون مسجدًا وأرادوا به النكاية في الإسلام وأهله.

وغرضى من هذا التنبيه دفع التوهم الذى قد يقع عند البعض من اشتباه الألفاظ حيث جرى على ألسنة أولئك المذكورين ألفاظ من نحوما جاء هنا كالوسطية والاعتدال، ولعل ما جاء فى الفقرة السابقة والتى قبلها يوضح أن الوسطية والاعتدال هنا هما الوسطية على فهم أهل السنة والسلف الصالح ممن ينشدون العلم الصحيح، ويوالون الإسلام وأهله ظاهرًا وباطنًا، ولذا فهم يناصبون الفريق الذى اتخذ تلك الأسماء الضرار العداء ويخالفهم لفظًا ومعنى، ويتقربون إلى الله بكشف

أباطيلهم وذودهم عن حياض هذا الدين، ولذا نبادر فنؤكد أن لفظ الوسطية وغيره ألفاظ صحيحة ورد بها الشرع الكريم، وليس معنى كون أهل الباطل يزينون بها باطلهم أن علينا أن ندعها لهم، بل الصواب أن ننتزعها من بين أيديهم ونطهرها من رجسهم، فإن ما شرعه الله لا يترك لفعل المبطلين والمبتدعين[1].

● ومن أعجب معانى «الوسطية» التى يحسن بيانها هنا ما يمكن أن نسميه الجمع بين الأضداد على وجه الإحسان، وذلك بأن يكون العبد قويًا فى مواضع القوة، ليِّنًا فى مواضع اللين، صبورًا فى أوقات الشدة، شكورًا فى أوقات النعمة، فكل صفتين من هذه الصفات متضادتان وفى الوقت نفسه جاءتا على وجه الإحسان، بمعنى أن كل صفة من الصفتين المتضادتين قد وقعت فى أحسن موقع، وهذا بخلاف من يجمع بين الأضداد لا على وجه الإحسان وإنما بنوع من تقلب المزاج واضطراب الطبع، فقد يكون ضحوكًا عبوسًا ولكن كلاً من ضحكه وعُبوسه يقعان كيفما اتفق، فى أوانهما، وفى غير أوانهما دون حكمة ولا حزم ولا انضباط، فكان من أعظم خصائص الأمة الوسط أنها تجمع بين الوصفين المتقابلين وتضع كلاً منهما فى موضعه على غاية الاعتدال.

وأعظم من تحقق فيه هذا الوصف محمد ﷺ وصحابته رضوان الله عليهم:

فنبينا ﷺ هو الضحوك القتال، نبى الرحمة ونبى الملحمة، يَغلب

(١) وقد سبق أن أوردنا شيئًا من ذلك من كلام شيخ الإسلام فى قاعدة الاعتصام (انظر ص ١٢٤ وما بعدها).

فلا يَبْطَر ويُغْلَب فلا يضجَر، يأكل الطيبات ويمازح أصحابه ويأتى أهله، على أنه أعظم الناس خشية وإنابة وأشدهم وقارًا ومهابة وأكثرهم تقشفًا وزهدًا، يقوم وينام ويصوم ويفطر ويتزوج النساء، لا ينتصر لنفسه قط فإذا انتهكت محارم الله لم يقم لغضبه شيء، من رآه بديهةً هابه ومن عرفه مخالطة أحبه.

وصحابته رضوان الله عليهم هم خير أتباع الأنبياء، يصفهم ربهم بأنهم أشداء على الكفار رحماء بينهم، أذلة على المؤمنين أعزة على الكافرين، وقد كانوا رهبانًا بالليل وفرسانًا بالنهار، شكَّارين للنعم صبَّارين فى المحن، فى الأمن سحابة تمرٌ وندىً يتقطَّر، ألين الناس طبعًا وأحسنهم خلقًا، وفى البأس أمواج عاتية وصواعق مرسلة، يأكلون الطيبات ويتبادحون بقشر البطيخ فإذا كانت الحقائق كانوا هم الرجال.

وقد حق فيهم قول القائل:

لا يفرحون إذا نالت رماحهمُ قومًا وليسوا مجازيعًا إذا نيلوا

وخير أصحابه أبو بكر وعمر رضى الله عنهما، وقد جمع ﷺ لين أبى بكر وشدة عمر، ولما مات ﷺ واستقل أبو بكر بالأمر ظهرت منه شدة وقوة برَّز بها على سائر الصحابة بما فيهم عمر، كما فى موقفه فى وفاة النبى ﷺ وفى محاربة المرتدين، ومع ذلك بقى لينه ورقَّته لوقتهما، ولم تختلط عليه الأمور.

ولما استقل عمر بالأمر من بعده ظهر من لينه ورحمته بالمسلمين شئ عظيم، فكان مع قوته وحزمه من أخشع الناس وأرفق الناس، وأبعد الناس عن الظلم، بل كان مضرب المثل فى العدل والرحمة والتواضع

وخفض الجناح، وادخر شدته لمقام الشدة، فصار فيه شدة وفيه لين يقعان فى أحسن المواقع (كما كان حال الصدِّيق من قبله) رضوان الله عليهما[1].

وقد كانت العرب تعد هذه الخصلة من خير صفات الرجال، وتجعلها أساس السيادة والشرف، وأقصى ما كان يبلغه المادح من الممدوح أن يصفه باجتماع النعتين الكريمين المتقابلين وإنزال كل منهما فى موقعه، ومن هنا ذاع فى الناس قول الشاعر:

شُمْس العداوة حتى يُستقاد لهم ... وأعظم الناس أحلامًا إذا قدروا[2]

وقول الآخر:

أقلُّوا عليهم - لا أبا لأبيكمُ- ... من اللوم أوسُدُّوا المكان الذى سَدُّوا

أولئك قوم إن بَنَوا أحسنوا البِنا ... وإن عاهدوا أوفَوْا وإن عقدوا شدُّوا

يسوسون أحلامًا بعيدًا أناتها ... وإن غضبوا جاء الحفيظة والجِدُّ[3]

وما أحكم قول القائل:

إذا قيل مهلاً قال للحلم موضع ... وحلم الفتى فى غير موضعه جهل

وهذا الوصف الذى أفضت فى الحديث عنه هنا - أعنى جمع الوصفين المتضادين وإيقاع كلٍّ فى موقعه - هو الفطرة السليمة والحكمة

(١) وفى كلام شيخ الإسلام فى القاعدة الأولى من الفصل الأول مزيد بيان فيما يتعلق بحال أبى بكر وعمر رضى الله عنهما.

(٢) الشُمس: يراد بهم أهل النفور والإباء الذين لا يلينون فى عداوتهم، وقوله: «حتى يستقادلهم» أى: يؤخذ لهم الحق، مأخوذ من القَوَد وهو القصاص.

(٣) الأناة: الحِلْم، والحفيظة: الغضب، فهم يجمعون حلمًا وغضبًا ويضعون كلا فى مكانه على أحسن الوجوه.

الكاملة والطبيعة السوية التى اختُص بها أصحاب الأنفس الكبار دون غيرهم ممن إذا غلب عليه طبع استعمله فى الخير والشر، فيما يضر وما ينفع: فإما سخيٌّ إلى حد الإسراف والتبذير، وإما ممسك إلى حد البخل والتقتير، وإما لين إلى حد التفريط فى الحقوق، وإما شديد إلى حد العدوان والبغى.. وهكذا، ولا يسلم من هذا إلا قليل من أقوياء الأنفس أصحاب العزائم ممن يروِّضون أنفسهم ويهذبون طباعهم ويصبرون على ذلك مستعينين بالله، حتى تستقيم نفوسهم، وتتهذب طباعهم، ويستووا على الصراط الذى يسألون الله إياه فى كل ركعة من ركعات ليلهم ونهارهم.

وقد لخص شيخ الإسلام سبب قصور أكثر الخلق عن تحقيق هذا المعنى الجليل من معانى الوسطية بقوله:

«الإنسان فيه ظلم وجهل، فإذا غلب عليه رأى أو خلق استعمله فى الحق والباطل جميعاً، لم يحفظ حدود الله، ولهذا يأمر الله بحفظ حدوده..»[1].

وقد ضرب المثل فى هذا بمن فى طبعه شدة ومن فى طبعه لين على ما ذكرنا، وكثير من كلامه فى هذه القاعدة يدور حول بيان هذا المعنى، وهو من أنفس ما جاء فى هذا الأصل، وعنه أفدت فيما كتبته هنا.

وقد تضمنت هذه القاعدة ثلاثة فصول:

الفصل الأول: «قواعد فى الوسطية».

وهى ست قواعد توضح بمجموعها الفهم الصحيح لهذا الأصل

---

(١) انظر ص (٤١، ٤٢) من هذا الكتاب «الصورة السابعة».

الجليل من الجهتين: النظرية والعملية، ففيها بالإضافة إلى الأصول النظرية أمثلة توضيحية للاستقامة على الوسط والانحراف عنه. وانظر الفهرس آخر الكتاب لتتبين ذلك فى عنواناتها.

الفصل الثانى: «الأمة الوسط»

وفيه مقصدان:

- المقصد الأول: «وسطية المسلمين بين أهل الملل». وفيه بيان كون المسلمين وسطًا بين الأطراف المتجاذبة. ولما كان أعظم مِلَّتين أدركهما الإسلام ممن لهم كتاب منزّل اليهود والنصارى، وحيث كان أهل هاتين الملتين على طَرَفَىْ نقيض فيما بينهما فى التوحيد والأنبياء والشرائع وغير ذلك، ولما وكان المسلمون هم أهل الصراط المستقيم الذى هو وسط بين سبيل المغضوب عليهم (وهم اليهود) والضالين (وهم النصارى) كما جاء فى الحديث[1] - لما كان شأن المسلمين كذلك مع هاتين الأمتين العظيمتين فلا جرم كانت أمة الإسلام مباينة لكل منهما، سالكة سبيلاً وسطًا بين هذين السبيلين المنحرفين كما وصفها ربها، فهى حنيفية وسطٌ لا يهودية فيها ولا نصرانية.

وهذا الأصل الجليل مما عنى شيخ الإسلام ببيانه فى كل مناسبة.

- المقصد الثانى: «خصائص الأمة الوسط وبيان فضلها على الأمتين السابقتين». وفيه ذكر الخصال التى اختصت به أمة الإسلام من دون الأمم وبخاصة اليهود والنصارى.

(١)وهو قوله ﷺ: «اليهود مغضوب عليهم والنصارى ضالون» أخرجه الترمذى وغيره وصححه الألبانى [صحيح الجامع ٨٢٠٢].

وثمرة هذا الفصل أمران: أحدهما: مزيد العلم بحقيقة الوسطية ومعانيها وعظم خطرها وكونها فرقانًا بين الصراط المستقيم والسبل المعوجة، والأمر الثانى: معرفة مِنَّة الله على هذه الأمة وكونها الأمة المصطفاة، وشكر الله على هذه المنة، والاجتهاد فى التحقق بخصال الأمة الوسط المذكورة هنا وهى التى استحقت بها هذا الفضل بين الأمم.

الفصل الثالث: «الفرقة الوسط: أهل السنة والجماعة».

وهذا الفصل نظير الفصل السابق، وذلك أن شيخ الإسلام رحمه الله يرى أن أهل السنة والجماعة بين الفرق شأنهم شأن الإسلام بين الملل، ولذا احتوى هذا الفصل أيضًا على مقصدين نظير ما جاء فى الفصل السابق، وهذا يغنينا عن تكرار القول هنا، حتى الثمرة الحاصلة من هنا هى الثمرة نفسها التى ذكرناها فيما يخص الفصل السابق، مع الفارق الذى لا يخفى من كون «الفِرْقة» أخص من «الأمة».

وهنا أمسك عنان القلم بعد هذه المقدمة التى طالت عن عمد لخطورة الأصل الذى نقدم له، وأخلى بين القارئ الكريم وبين هذه الدرر النفائس التى جهدت فى تشويقه إليها، وإنها والله لأعظم مما وصفت، وحسب العبد منها أن يزداد بصيرة فى دينه ويكون له فرقان يميز به سبيل الهدى عن سبل الزيغ والانحراف، فإنه متى حصَّل ذلك يكون على صراط مستقيم يسير به إلى الجنة، فالصراط المستقيم والجنة شيئان متلازمان لا ينفكان: قال تعالى: ﴿وَاللَّهُ يَدْعُو إِلَى دَارِ السَّلَامِ وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾.

اللهم اهدنا صراطك المستقيم، واجعلنا وسائر أهلينا وأحبابنا وإخواننا من الأمة الوسط العدل الخيار، واجعلنا يا رب من أهل الفردوس

الأعلى التى هى أعلى الجنة ووسطها.

والحمد لله رب العالمين وصلِّ اللهم على محمد عبدك ورسولك وآل بيته الطاهرين وصحابته الطيبين.